العربية وطن المغرب

لم تلق «أغادير» بقديمها خلفها، ولم تقبل بأن تهب نفسها بالكامل إلى جديد عمراني ناصع البياض بلا قلب. نهضت «أغادير» من تحت الأنقاض وبدأ قلبها الموسيقي يدق من جديد ناشراً عزفه المنفرد وصوت غنائه القديم في الجبال والوديان. ينهض قديم أغادير من نومه مع بزوغ الشمس في كل صباح متوجهاً إلى الشاطئ الرملي والبحر المحيط، ليعرض لوحات من فنون الفرجة الفولكلورية والتراثية، وليقدم في فضاء المدينة الملون الاحتفال والمهرجان الذى يدل علي القلب الجنوبى الذى لا يتغير بتغير الفصول.

هنا في أعلى الجبل المشرف على أغادير سور وأطلال قلعة بناها «السعديون»، لولاها - يذكر بعض المؤرخين - ما استطاع المقاومون المغاربة إخراج البرتغاليين من جنوب المغرب ولبقوا فيها لسنوات طويلة. وهناك في الأسفل مدينة «أغادير» الحديثة، التى شيدت على بعد حوالى كيلو مترين من المدينة القديمة المدمرة، والتى تفتح ذراعيها كل صباح لساكنى الصحراء والقرى المجاورة بعاداتهم وتقاليدهم، وللسائحين الذين تجتذبهم شمس أغادير ورمالها وشواطئها.

طيور النورس البيضاء تحلق فوق شواطئ «أغادير» عاصمة منطقة السوس الأمازيغية. سيارات كبيرة بأرقام أوروبية مجهزة كبيوت

متنقلة، عبرت مضيق جبل طارق فى الشمال، وقطعت مئات الكيلومترات فى اتجاه عاصمة الجنوب، وحطت رحالها على الشاطئ الرملى المتسع والمحاذى للبحر المحيط. سياحة المخيمات نوع من السياحة قليلة التكاليف يفضلها السائح الأوروبى. إلى هنا فى أطراف «أغادير»، حيث الجبل والشاطئ الرملى والبحر، يأتى عشاق المنظر الطبيعى الذى لم تمتد إليه يد بشر بسوء للقاء شمس أغادير الحمراء.

يوقف سائق الحافلة محركها، فأنهض من مقعدى إلى جانب النافذة، وألقى بنفسى فى المنظر الطبيعى الذى لم تمسسه يد بشر بسوء. استشعر صوت الصمت لا يقطعه إلا صوت طائر برى وموجة تداعب رمالاً ذهبية ناعمة. أكاد أنصت إلى صوت فى داخلى يهتف بى: «اخلع نعليك»، فوجدتنى أقذف بهما فى الهواء وأركض فى اتجاه زرقة البحر المحيط وحمرة قرص الشمس و بياض النوارس. والبحر أمامى والجبل من خلفى، أصرخ بأعلى الصوت مردداً اسمى واسم أبى وجدى، وأنحنى إلى الرمال لأكتب أسماء الله الحسنى.

الجمل، سفينة صحراء العرب والأمازيغ، قادم من صحراء «تارودانت» و «ترنيت» و «كولمين» فى شرق وجنوب أغادير. حط الجمل على الرمل بالقرب من سائحة أوروبية سارعت باعتلائه متشبثة بسنامه خشية السقوط لحظة نهوضه. صاحب الجمل صحراوى ملثم الوجه يرتدى ملابس زرقاء، غادر قريته الصحراوية النائية سعياً وراء رزق أوفر فى المدينة الساحلية السياحية أغادير.

«حسن أبو الطيب» المرشد السياحي الأمازيغي: الذي يتحدث العربية والأمازيغية والفرنسية، أنظر إلى ملامح وقسمات وجهه وهو يعتذر عن ضعف لغته العربية: فأراه، كما أرى المغرب، سليل حضارتين (إسلامية ومتوسطية) ولغتين (عربية وأمازيغية) وعرقين (عرب وأمازيغ)، ورهين المكان الثالث، الواقع بين مكانين: المغرب وفرنسا. فهل المغربي العربي «حسن أبو الطيب» منقسم على نفسه، أو أنه منفتح على الآخر إلى حد المرض؟

أتذكر عبارة «ألبير كامي»: «نعم لي وطن: إنه اللغة الفرنسية» وأعجب لمراهنات الفرنسيين إبان استعمارهم لبعض بلدان شمال إفريقيا على التمييز بين المغاربة الناطقين منهم بالأمازيغية والناطقين باللغة العربية. وأعجب كذلك لمحاولة وزارة التربية والتعليم الفرنسية منذ أعوام قليلة بعث اللهجات المحلية كالأمازيغية وغيرها وتشجيع انتشارها بين أبناء دول المغرب العربي المقيمين في فرنسا.

في المغرب الآن من ينعت اللغة العربية بالضعف والتقهقر ويعتبرها لغة الأبواب الموصدة، بخلاف اللغات الأخرى التي يرونها لغات المستقبل والأبواب المشرعة على مصاريعها. تؤكد الكاتبة المغربية «إكرام عبده» أن العيب ليس في اللغة العربية حاملة العلوم والآداب والفكر طوال تسعة قرون، والتي كان يمتلكها «ابن رشد» واخترق بها الآفاق، بل العيب في أهلها الذين لم يكونوا حضناً رءوماً لها يراعونها ويطورونها.

تصـرخ المغربية «إكرام عبدى» بأعلى صوت: لا لكل عولمة تستأسـد وتستوحش لتلتهم مقوماتنا وخصوصيتنا وهويتنا ولغتنا. لا لكل تصارع لغوى يقصد الإقصاء والتهميش وليس التفاعل. ونعم لكل ترشيد حكومى للوضع اللغوى الفاسـد. نعم لكل «سـلم لغوى» بتعبير الكاتب المغربى «عبدالكريـم الخطيبى»، سـلم يولد التعايش والتطـور وليس التقاعس والتكلـس الفكـرى، نعم لكل علاقـة لغوية قوامها الاحـترام والأخذ والعطـاء، ولكل لغة دخيلة تخـدم لغتنا العربية ولا تحل محلها. نعم أيضاً لفك العزلة عن اللغة العربيـة ومعانقتها للمدار اليومى والمعرفى والمؤسسـاتى ضمانـاً لكل تطور واسـتمرارية ولكل وقـوف بين الفينة والأخرى لحظة تأملية للكشـف عما يعتريها من نقص وثغرات، سعياً لخلق أدوات تحديثها وإنعاشها.

إنهـا المعضلة التى نجح فى حلها المفكر العربى «ابن رشـد»، الذى جمع بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة اليونانية التى كانت تمثل قمـة الثقافة الإنسـانية المعاصرة فى وقتها. «ابن رشـد» – يقول المفكر المغربى «محمد عابـد الجابرى» فى حوار أجراه معـه الكاتب المصرى الـذى أحبه كثيراً «محمد بركات» فى الدار البيضاء – مفكر ومجدد فى الفقه، وكان القرآن الكريم يجرى على لسانه بتلقائية فى كل المناسبات والأحوال، إذ كان يسـتحضره فى الفلسـفة والجدل وفى كل ميدان من الميادين التى بحث فيها فى الثقافة العربية الإسـلامية، وفى الثقافة الأوروبيـة اليونانية، وكانتا مجمل الثقافة الإنسـانية العالية فى ذلك

الوقت. كانت هاتان الثقافتان حاضرتين عند «ابن رشد» معا بدون تنازع فـي فكره. ولم يكن يشـعر بـأى تناقض بين أن يكـون فقيهاً مجتهداً ومجدداً وملتزماً بجميع ما يفرضه الدين عقيدة وسلوكاً، وبين أن يكون شارحاً لأرسطو، بل متجاوزاً له فى نفس الوقت.

ما حاجتنا إلى «ابن رشـد» الآن؟. يجيب المفكر المغربى «محمد عابد الجابـرى»: إنها حاجة ثقافيـة وحاجة فكرية فـى آن واحد، فنحن نحتـاج له فى العصـر الحاضر أكثر من أى شـخص أو فكر آخر، ذلك أننـا نتحدث منـذ قرن من الزمان عن تجديد الفكـر العربى، وعما إذا كان هـذا الفكر يجـب أن يكون أصيلاً أو معاصـراً. إن ثقافتنا يجب أن تجمـع بين الاثنين، ولكن ليس بمجرد الكلام، بل بالامتلاء الكامل من الثقافـة المعاصرة من ناحية، ومن الثقافـة التراثية العربية من ناحية أخرى، إذ لا يمكن أن يبدع الإنسان فى غير لغته وثقافته. تعلم ما شئت من الإنجليزية وتاريخها، ومن الفرنسـية وفلسفتها، ولكنك لن تكون مبدعـاً فى هذه أو تلك، بل لن تكون خلاقاً بحق إلا فى ثقافتنا العربية الإسـلامية، شـريطة أن تكون قد أحسـنت الاطلاع إلى حد الامتلاء من ثقافتك العربية أولا ومن مفاهيم ومباحث الفكر الأوروبى ثانياً.

«ابن رشد» يمثل للمفكر المغربى «محمد عابد الجابرى» ذلك الشخص الذى يطالبنا بأن نحققه باسـتمرار فى كياننـا الثقافى، لأن الذى يقرأ «ابن رشد» ويفهمه بجانب الحضارة العربية الإسلامية لا يمكن – يؤكد «الجابرى» – أن يكون متطرفاً ومتعصباً. فـ«ابن رشـد» رمز على حرية

الفكر والإبداع كما لا نجدها عند مفكر أو فيلسوف آخر. لقد كتب «ابن رشد» كتاباً عن المذاهب الأربعة، على رغم أنه مالكى المذهب، ولكنه لم يتعصب لا للمالكية ولا للحنفية ولا لغيرهما من المذاهب، بل كان يقول رأيه فى بعض القضايا الفقهية مخالفاً للمالكية. وكتب «ابن رشد» فى الطب والفلك فعارض بطليموس وجالينوس وأبو قراط، وجاء بآراء من عنده مستقلاً فيها بشخصيته.

«من العدل أن يأتى الرجل لخصومه من الحجج بمثل ما يأتى بها لنفسه». تلك عبارة «ابن رشد» الذى يقول عنه المفكر المغربى «محمد عابد الجابرى»: إن الرجل الذى بلغ هذه الدرجة من العمق فى التفكير ومن السماحة فى الآراء هو الذى نحتاجه الآن. إنه «ابن رشد» المفكر الحر الملتزم الذى تحتاج إليه ثقافتنا المعاصرة. إنه المثقف الذى يرفع شعاراً واحداً هو الحقيقة.

هكذا يتحدث الحكيم العربى المغربى ساكن الدار البيضاء «محمد عابد الجابرى»: نعم.. ثمة همّ عام يشغلنى. فأنا أرى أن مدار الأمر كله هو البحث عن الاستقلال التاريخى للذات العربية. أن تكون مستقلاً برأيك أمام أصحاب النظريات والأفكار الحديثة. أن تكون أنت أنت فى مواجهة العولمة وصدام الحضارات، وهذه النظرية أو تلك فى الفكر الغربى والفكر الإنسانى بعامة. إن الإنسان العربى الآن بحاجة إلى الاستقلال بالذات، ولكن ليس هو الاستقلال الفج الذى يذهب إلى حد التنويه بالنفس والعجرفة الفارغة، بل هو الاستقلال الفكرى، بمعنى

أن يكون الإنسان العربى واثقاً أنه يقف برجليه على أرض صلبة. وأنا أعتقد أنه فى عالم السياسة كما هو فى عالم الفكر نحن بحاجة إلى هذا الاستقلال، فليست ثمة خطة سياسية مثلاً فى العالم العربى، لا للدولة الواحدة، ولا لمجموعة الدول العربية، ونفس الشىء فى الفكر، حيث نرى أن لكل دولة منطلقاتها وسياساتها التعليمية التى تضعها كما تريد، وأحياناً كما لا تريد. ويؤدى بنا هذا إلى أن نقول: إنه لا على مستوى السياسة ولا على مستوى الفكر نجد شخصاً واحداً من بين العرب يقف على أرض صلبة. ليس هناك ذلك الاستقلال الفكرى الراسخ، بل ثمة أفكار وآراء تميل مع الهوى، وتحركها الظروف الآنية والعاجلة والمؤقتة ولا يحركها التاريخ.

يتحدث الحكيم العربى المغربى والناقد للعقل العربى «محمد عابد الجابرى»: إن حاجتنا شديدة إلى تجديد ثقافتنا وإغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا ومقاومة الغزو الكاسح الذى يمارسه المالكون للعلم والتقنية والمسخرون لها لهذا الغرض. حاجتنا هذه لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التى لابد منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتكنولوجيا، دخول الذوات الفاعلة المستقلة، وليس دخول «الموضوعات» منفصلة المسيرة.

إن أوروبا اليوم تتحدث حديث الخصوصية والأصالة، وتتحدث عن الهوية الأوروبية تعزيزاً لسيرها الجدى على طريق تشييد

الوحدة بين شـــعوبها وأفكارها، بخطوات عقلانية محســـوبة فى إطار من الممارســـة الديمقراطية الحقة، وهى بذلك تقدم لمستعمراتها القديمة فـــى أقطار العالم الثالث، نموذجاً صالحاً للاقتـــداء به بعد ملاءمته مع الخصوصيات المحلية.

obeikandl.com

«ابن بطوطة» يشدّ الرحال إلى الذات العربية

يحكى أن نِقَاشاً دار بين الجنرال «ديجول» وبين بعض الساسة الفرنسيين حول كيفية الحفاظ على الجزائر المستقلة داخل التأثير الفرنسى، فقال له البعض: يتم ذلك بالإبقاء على قواعد عسكرية. وقال له البعض الآخر: يتم ذلك بإبقاء الاقتصاد الجزائرى مستقبلاً مرتبطاً بالاقتصاد الفرنسى. لكن الجنرال «ديجول» أجابهم: لا هذا ولا ذاك، فقط حافظوا على وضع اللغة الفرنسية تحافظوا على الجزائر المستقلة داخل النفوذ الفرنسى.

يكتب «الطاهر بن جلون» الروائى المغربى رواياته باللغة الفرنسية، متحدثاً عن نفسه وتمزقها بين مكانين ولغتين وثقافتين، ومتحدثاً عن المهاجرين من الجنوب المغربى الفقير والمهمل إلى فرنسا، أولئك المُقتلعين والمنفيين فى آن معاً، الذين يعانون الاغتراب الثقافى واللغوى والروحى.

فى روايته «العينان الخفيضتان»، يكتب الروائى المغربى «الطاهر ابن جلون» بالفرنسية عن تغريبة المغاربة فى بلاد الفرنجة، وعن عنصرية فرنسا التى تتمثل فى مصرع الفتى المغربى «جلالى» عندما اجتاح رجال الشرطة الحي المغربى فى باريس، وعن مدام «سيمون» التى تشعر بالخجل لأن بعض الناس فى فرنسا اعتاد احتقار من ليسوا

مثلهم ولا ينتمون إلى الدين نفسه.

بالفرنسية يكتب الروائى المغربى «الطاهر بن جلون» عن مأساوية الصراع بين الانتماء إلى المكان الأول «المغرب» وبين الغرق فى متاهة المكان الثانى «فرنسا»، بين الحياة الراهنة والماضى، بين باريس وتلك القرية الفقيرة المهملة فى الجنوب المغربى.

فى رأى الكاتب العربى المغترب «عقل العويط» أن جزءًا من النفس الداخلية لبطلة رواية الروائى المغربى «الطاهر بن جلون»، صاحبة العينين الخفيضتين، لا يزال معلقاً فى شجرة القرية فى جنوب المغرب، وأن جزءًا آخر من نفسها الداخلية فى الوقت ذاته يتهجى حروف اللغة الفرنسية ويتشرب روح وثقافة فرنسا. إنها الهوة الهائلة فى القلب المغربى التى تدفع بطلة الرواية إلى أن تعلن عن رغبتها العميقة فى أن تتم القطيعة بداخلها بين المكانين واللغتين والثقافتين.

يُحكى أن الروائى المغربى «الطاهر بن جلون» الذى يكتب بالفرنسية عندما جاء إلى تونس بدعوة من المركز الثقافى الفرنسى، الذى نظم له لقاء موسعاً مع جمهور تونسى وفرنسى، بمناسبة حصوله على جائزة «جونكور» الأدبية فى فرنسا عن روايته «ليلة القدر»، تحدث بالفرنسية. فهل فعل «الطاهر بن جلون» ذلك بحكم وجود جمهور فرنسي بالمركز الثقافى الفرنسى، أو بحكم اختيار واع؟. قالت الأديبة التونسية «خيرة الشيبانى» إن «الطاهر بن جلون» فى بداية اللقاء ذكر أنه لن يرفض الإجابة عن أى سؤال يوجه إليه ماعدا السؤال حول عدم

كتابته باللغة العربية. الذى سبق أن أجاب عنه آلاف المرات.

الروائى المغربى «الطاهر بن جلون» الذى يكتب بالفرنسية، متهَم بأنه يكرس لهيمنة الثقافة الفرنسية على كتاب المغرب العربى، ولمحاولة استقطابها له ككاتب يقدم المجتمع المغربى للقراء الفرنسيين بشكل فولكلورى يدعو للرثاء.

هل هى حرب تشنها فرنسا منذ أكثر من أربعين عاماً على العربية فى أقطار المغرب الأربعة؟.. يتساءل «عثمان سعدى» رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية.

فى السنوات الأربع الأولى التى تولى فيها الرئيس الفرنسى «شارل ديجول» الحكم وسبقت استقلال الجزائر، هل أعد للحفاظ على الجزائر المستقلة داخل النفوذ الفرنسى بالمحافظة على هيمنة اللغة الفرنسية داخل الجزائر؟. وهل قام «ديجول» بتوجيه الساسة الجزائريين الذين تسلموا قيادة الثورة بعد اعتقال «أحمد بن بيلا» بأن يكتفوا بتحقيق هدف واحد من الثورة المتمثل فى تحرير الأرض فقط وترك الذات الجزائرية مستعمرة فرنسية من خلال بقاء هيمنة اللغة الفرنسية على الدولة الجزائرية؟ وهل ما حدث فى الجزائر حدث مثله فى المغرب وتونس وموريتانيا؟

ظروف غامضة أحاطت بظهور حركة الفرانكفونية التى تضع فى مشروعها ترقية اللغات الوطنية فى الدول التى تستعمل اللغة الفرنسية، إلا أنها لا تعطى أية ضمانات لحماية تلك اللغات الوطنية

من هيمنة الفرنسية. كان من رأى «المهدي المنجرة» الأستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط أن المدافعين عن الفرانكفونية يعودون إلى الجنرال «ديجول» الذى كان أول من حاول خلق مجموعة فرانكفونية، وعندما فشلت محاولته تلك حاول إيجاد بديل لها، وهكذا تم تشكيل وكالة التعاون الثقافى والتقنى بين فرنسا والدول الناطقة بالفرنسية فى عام ١٩٦٧ ثم عقد أول مؤتمر فرنسى إفريقى فى عام ١٩٧٠ وأخيراً نظمت قمة الفرانكفونية فى ديسمبر عام ١٩٨٥.

لاحظ المغربى «المهدى المنجرة» منذ سنوات أن مفهوم الفرانكفونية كما تطور عبر التاريخ عمل على تقسيم إفريقيا، كما تسبب فى تعطيل خلق مجموعات اقتصادية متجانسة فى القارة السمراء، وأسهم فى الترويج لنموذج تنمية التخلف فيها، وشجع على الاعتماد على «الصدقة» التى تدخل فى إطار الدعم الهزيل والتعاون غير الموجود.

ومنهم كذلك الروائى الجزائرى «واسينى الأعرج» بأنه فى بداية عام ٢٠٠٠ روج على شاشة التلفزيون الجزائرى لاعتماد أربع لغات: الفرنسية والأمازيغية والعربية الجزائرية والعربية الفصحى، ولكتاب نشر فى فرنسا تحت عنوان «لغات الجزائر» لـ «خولة الإبراهيمى» حفيدة شيخ العربية العلامة الشيخ «البشير الإبراهيمى».

ربما هناك آخرون فى دول المغرب العربى متهمون بالتشجيع علي إحداث قطيعة بين المغربى العربى ولغته العربية. فالباحث التونسى «بكار توزانى» قال إن فرانكفونية تونس، وعروبتها وإسلاميتها

وانتماءها للبحر المتوسط وإفريقيا والمغرب العربى هى المكونات الستة التى تكوّن هوية تونس.

هل المسافة الروحية بين المشرق العربى والمغرب العربى فى الزمن القديم لم تكن كبيرة وشاسعة كما هى الآن؟. فى كتابه «فى التراث»، فرق المفكر المغربى الدكتور «محمد عابد الجابرى» بين عقلانية فلاسفة المغرب العربى ولا عقلانية فلاسفة المشرق العربى، وقال إن «ابن رشد» و «ابن باجة» و «ابن طفيل» هم المدرسة العقلانية فى التراث الإسلامى، وأمّا «ابن سينا» و «الغزالى» ومتصوفة المشرق فهم المدرسة اللاعقلانية.

فى رأى الكاتب المشرقى «محمد الأسعد» أن هذا النوع من التصنيف قام على أساس تجاهل عدد من الوقائع، أولها: أن «ابن رشد» لم يكن إلا تلميذاً «للفارابى» المشرقى، وكذلك الأمر مع «ابن طفيل» الذى لم يترك الأمر غامضاً فى مقدمة كتابه «حى بن يقظان» حين أشار إلى فضل «ابن سينا» على أطروحته. ويؤكد «محمد الأسعد» أن هذا التداخل والتشابك الطبيعى فى إطار ثقافة واحدة لها جوانبها العقلانية واللاعقلانية ما كان يمكن أن تنتج أطروحة المشارقة والمغاربة، لولا تجاهل أن هؤلاء هم نتاج إطار حضارى واحد وجغرافية بشرية واحدة، وأن تصنيف العقل الجمعي على أساس نزعات فرد ظهر فى المشرق أو فى المغرب فيه من المغالطة الشيء الكثير.

كذلك، ذهبت بعض طرائق البحث الاستشراقى التى ربطت أسماء العلماء العرب بمناطق جغرافية معينة إلى أن لكل منطقة موروثها

المختلف، وإلى شيوع الاعتقاد بغنى بعض المناطق العربية بالموروث الحضارى وفقر بعضها الآخر على أساس من تقسيم جغرافى متعسف.

فى سبعينات القرن الماضي تصاعدت أصوات فى المغرب تدعو إلى مقاطعة المشرق ثقافياً بسبب تعاليه وتجاهله وتعامله مع المغرب بدونية، كما ترتفع مِن وقت لآخر أصوات بعض الكتاب فى المغرب مطالبة بالقطيعة مع ذلك المشرق الذى تشبث به المغاربة دفاعاً عن عروبتهم.

فى اعتقاد الشاعر المغربى «محمد بنيس» أن المرارة المغربية من التعالى المشرقى تزداد، والفاصل بين المشرق والمغرب يتسع بشكل مأساوى برغم تكاثر اللقاءات بين المشارقة والمغاربة. والرأى عند الشاعر «محمد بنيس» أن حل هذه الإشكالية لن يتأتى إلا إذا تواضع المشارقة وخطوا خطوات معرفية نحو المغرب الثقافى.

«المرارة المغربية من التعالى المشرقى» كما جاءت فى عنوان مقال للشاعر المشرقى «أمجد ناصر»، تعبر عن نفسها أكثر فى كلمات الشاعر المغربى «حسن نجمى»، التى تجيب عن سؤال العلاقة بين المشرق والمغرب على الصعيد الثقافى: إن مؤرخى الأدب العربى فى المشرق لم يخصصوا ورقة واحدة لتاريخنا الأدبى من عهد الدولة الإدريسية إلى العهود الحديثة، وكأن الأدارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين كانوا فقط جحافل عسكرية ولم يصنعوا حضارات وثقافات متراكمة فى تاريخ المغرب.

لكن صوت الشاعر المغربى «هشام فهمى» الذى ينتمى إلى جماعة «المغارة الشعرية» التى يقيم معظم أعضائها فى «مراكش»، جاء مخالفاً لصوت الشاعرين محمد بنيس وحسن نجمى: بالنسبة لى، فإن سؤال علاقة المشرق بالمغرب هو سؤال العلاقة بالذات أصلاً، علاقة بذات تتجاهل نفسها وتغض النظر عن ملامحها العميقة بدعوى ريادة المركز وحضوره وغياب الهامش. وهنا - برأيى - يتم تغليف صراع إقليمى بالتركيز على ثنائية مشرق - مغرب، القاتلة والواهمة، هذه الثنائية التى تفترض وجود كتلتين متعارضتين، الواحدة تنهش الأخرى بمنطق الزعامة والهيمنة.

لو عدنا إلى الوراء - يقول الشاعر المغربى «هشام فهمى» - لوجدنا «ابن بطوطة» و«الحسن الوزان» (ليون الإفريقى) يشدان الرحال باتجاه الذات الشاسعة للاقتراب من أنفاسها الأكثر حرارة، وهذا درس أظن أننا لم نستفد منه بعد، ولوجدنا كذلك إشارات نلاحظها عند «ابن خلدون» تحاول ملامسة الذات من خلال صورة الآخر.

obeikandl.com

رأيت «طارق بن زياد» على شاطئ البحر المحيط

كل

هذا البهاء الذى أستشعره بداخلى، ويملك علىّ كل حواسى، وأنا أركض فى فضاءات المدن المغربية، هل يسمح لى بأن أنعم برحيل هادئ عندما تحين ساعة الرحيل عن شمس المغرب؟، أكاد أجزم أن ألــوان وأصوات وروائح المغرب لن تغادرنى عندما لا يكون هناك مفر من المغادرة والعودة إلى المستقر.

كل هذا البهاء من حولى الذى ينســاب فى خلايای، ويســرى مسرى الــدم فى عروقى، أخاله يهتف بى أن أطلــق روحى من عقالها لتجول رشــيقة خفيفــة فى الأعالى، تنهل من رشــات رحيق القلب الموســيقى المحتجب هناك خلف الغمام الأبيض النقى.

هنــا عند أبعد نقطــة إلى جهة الغرب، تداعب فيهــا موجة البحر المحيــط الأطلســى بياض رمال شــاطئ «أغادير»، وتحلــق فى سمائها الزرقاء ســراب النعام الوردى، تطفر من عينى العبرات، وأنا أستذكر كلمات ترجمها الشــاعر المصرى «إبراهيم ناجى» عن الفرنسية للشاعر «شارل بودلير»:

مــا أســعد الــذى لــه جنــاح قــوى

يطــير بــه حيــث الضــوء والهــدوء

ذلك الـذى تشـبه أفكـاره أفكـار العصافـير
التـى تطيـر نحـو السـماء فـى أسـراب
ذلك الذى يحلق فوق الحياة ويفهم فى غير عناء
لغـة الزهـور والأشـياء الصامتـة.

يعلـو صوت الضجيج الأرضى على الصوت السـماوى العذب الممزوج بألـوان قوس قزح، ويسـقط قلبى الموسـيقى المحلق فـى الأعالى داخل صـدرى مثل عصفور فى قفص. بشـر من كل جنس ولون يجلسـون إلى موائـد طعام، أقامها الفنـدق الكبير الباذخ فى الهـواء الطلق، وتحت شمس «أغادير» التى توشـك على الأفول والرحيل والسـقوط الدامى فى مياه البحر المحيط.

أصوات اصطكاك الملاعق والأشـواك والسـكاكين والأطباق والكئوس، تختلط بصوت اللغات واللهجات والضحكات وموسيقى غربية وشرقية، على إيقاعاتها تتلوى أجساد الفتيات اللاتى كن هناك منذ ساعات قليلة فى أعلى الجبل، يقدمن عرضا باهرا للأزياء.

دائرة الرقص والموسـيقى تجتذب إليها الجميع بلا استثناء. رجال ونساء غزا الشيب شعر رءوسهم، أَنْهَوْا طعامهم، فهبوا واقفين متجهين إلى حلبة الرقص، بعد أن نحوا جانبا تاج الوقار الذى كانوا يتحلون به. إيقاعات موسيقى الشرق تهز أجساد أبناء الشرق والغرب على السواء، وتطرب لها الآذان. رجال من فرنسـا وإيطاليـا يتهافتون على الرقص بصحبة الفتيات.

أتأمل المطعم الباذخ الذى أقيم فى الهواء الطلق تحت الشمس الغاربة، والمعرض الباهر للأزياء. وعلى خلفية المعمار المغربى الأندلسى وعناصر الفولكلور المغربى الذى يتجلى فى قطع سجاد وأعمال نسيج وخزف ومشغولات جلدية ونحاسية وأزياء، أرى رجالا ببشرة داكنة هنا وهناك، سادرون فى وحدتهم وصمتهم، لا يكفون عن مواصلة العزف على آلة «الجميرى»، تفتر ثغورهم عن شبح ابتسامة حزينة، عندما يلقى عزفهم شيئا من اهتمام رواد الفندق من وجهاء العرب والأجانب، يعبرون عنه بإلقاء قطع من النقود فى الإناء المجاور للعازف السادر فى صمته وحزنه ووحدته.

فى المنطقة الحدودية، بين ضجيج رواد الفندق الكبير والقائمين على خدمتهم بكل إخلاص وطواعية، وبين مهرجان الأضواء والظلال والألوان فى الفضاء الممتد والمتسع للشاطئ الرملى الذى اصطبغ بألوان الغروب وقرص الشمس الأحمر الذى يلامس البحر المحيط عند خط الأفق، أرى جمهرة من الفرسان السمر فى ملابسهم البيضاء يعتلون صهوات الجياد العربية ويقبضون على بنادق يشهرونها فى اتجاه البحر. يستحوذ المشهد على ناظرى، وأجدنى فى حالة انجذاب إليه.

أقترب أكثر من المشهد فأخال نفسى وقد رجع بى الزمان إلى زمن الفتوة والنضارة العربية، ذلك الفارس الذى يمسك بزمام جواده بيد

وبيده الأخرى يقبض على بندقيته، توحى بشرته الداكنة وملامح وجهه الحادة بفرسان العرب والبربر (الأمازيغ) المسلمين فى شمال أفريقيا، فى الوقت الذى تحول فيه الإسلام إلى دين وقومية، وهو ما يرجع إليه منع وقوع خلاف بين العرب والبربر عبر مراحل التاريخ، فى تلك المنطقة التى جعلت من الإسلام ديناً وقومية، ومن الحضارة العربية خلفية أساسية لهما.

أنظر فى وجه الفارس من على بُعد، وجه «طارق بن زياد»، فتغمرنى موجة مفعمة بمشاعر العزة والفخار، لكن عندما لم يعد بينى وبين الفارس الذى يعتلى صهوة جواده إلا أقل من متر واحد، وجدته وحصانه ضعيفين هزيلين.

سألته أن يطلعنى على بندقيته، فلم يتردد، ولبى طلبى صاغراً، وعندما أمسكت بالبندقية بين يدىّ، هالنى حالتها الرثة وقدمها والصدأ الذى يعلوها. وسرعان ما انعقدت فى ذهنى مقارنة بين البندقية القديمة الصدئة وبين ذلك السيف الذى كان يحارب به الفارس القديم طواحين الهواء بلا جدوى، ووجدتنى أردد كلمات قصيدة لى كنت قد كتبتها منذ أكثر من ثلاثين عاماً مضت:

لأنه المسافر الغرير فى صحراء الانتظار
يخاف نظرة الخواء من نوافذ القطار
لأنه يجالد البكاء فى ارتعاشة الوداع
يخاف رفقة الصحاب

لأنه المغامر الجسور
يعتلى حصانه الهزيل
ملوحا بسيفه المكسور فى الفضاء
يخوض كل معركة
يخاف دمعة الرثاء
لأنه يسالم القضاء
يمازحه
لأنه يضاحك المأساة فى أسى
يخاف أن يداهن القدر
لأنه المهرج الضحوك
من أكفكم وفى وجوهكم يعاقر الشراب
لأنه الذبيح رقصة الموات
من له بأن يكفه عن الغناء
من له بأن يكفهم عن التصفيق والهتاف
عله يناشد الدواء فى البكاء

دبت الحركة والنشاط فجأة فى الفارس ممتطيا حصانه، واشتدت قبضتا يديه النحيلتين المعروقتين على مقود الحصان وعلى البندقية، ومثله فعل كل أفراد مجموعة الفرسان، الذين تلقّوا إشارة البدء فى العرض الذى سيقدمونه على الشاطئ لرواد الفندق الكبير

مثل عاصفة ألمت بصحراء، جرى عرض الفروسية، الأعيرة النارية

تنطلق من البنادق القديمة الصدئة، والفرسان على صهوات جيادهم ينطلقون على رمال الشاطئ، على نحو خُيِّل لى أنهم فى حرب ضروس مع أشباح مقاتلين أشداء. فى جعبة الفارس الكثير من الحركات الخطرة التى يؤديها الواحدة بعد الأخرى معتليا ظهر حصانه أو مترجلا عنه بينما الحصان يطلق سيقانه للريح. حركات خطرة تقترب بالفارس من وضعية مهرج السيرك الذى يدعى الجهل بما يقوم به زملاؤه اللاعبون ثم يفاجئ الجمهور بنجاحه فى أداء ربما أكثر الحركات خطورة، عندما يجد نفسه مضطرا إلى ذلك.

ينتهى عرض الفروسية ويعود الفرسان إلى الطرف القصى الذى كانوا قابعين فيه قبل أن يصدر إليهم الأمر بالبدء فى تقديم فقرة استعراضية لامتاع نزلاء الفندق، الذين يجلسون فى استرخاء، بعدما أفرطوا فى تناول مختلف أنواع الطعام، الذى اصطف فوق المناضد الطويلة الممتدة فى خطوط مستقيمة ومتعامدة، وفى التهام الحلويات المغربية التى أظهروا ضعفا واضحا تجاهها.

عدت من جديد إلى الفارس الذى تبادلت معه اطراف الحديث قبل العرض، وبينما كنت أود أن أطرى مهارته التى أبداها فوق صهوة حصانه، فوجئت بارتفاع صوت لهاثه، ورأيت صدره يرتفع وينخفض، وعرقا غزيرا يتصبب من جبهته ورقبته. تقدمت من الفارس مستفسرا عما إذا كان قد ألم به تعب أو إرهاق، إلا أنه أجابنى بقوله: لا شىء سيدى.

اللون الرمادى يغلب على المشـــهد الدامى الذى صاحب ســـقوط قرص الشمس واختفاءه فى مياه البحر المحيط. تذكرت سقوط غرناطة وحضارة العرب وعبد الله الصغير آخر ملوك العرب فى إسبانيا، وتذكرت تغريبة العـــرب الذين أجبروا على الرحيل من إســـبانيا، وعـــبروا مضيق جبل طـــارق إلى المغرب وتونس ومصر، ربما على ســـفن لا تختلف كثيرا عن تلك الســـفن التى أحرقها «طارق بن زياد» بعد أن عبر بها إلى الســـاحل الشـــمالى الأوروبـــى، مخاطبا جنوده العـــرب والبربر: العـــدو أمامكم والبحر من ورائكم.